

الفصل الثالث

الزبيح بن يونس وابنه الفضل ودورها في المؤامرات

obeykandi.com

تقديم *

في مثل هذا الجو المملوء بالدسائس والمؤامرات كانت تعيش قصور العباسيين ؛ فكانت تموج بالفتن ، وتزدحم بالوشايات ، وكان من الخلفاء من يُسعدون قادة في هذا الشأن ؛ إذ أثاروا هذه الحركات ورعوها ، ووطدوا سلطانهم على رفات الآخرين ، وشيدوا مجدهم على أنقاض الأشياء والأعداء جميعاً ، ومن الطبيعي أن انتقل هذا الحلق من سادة القصور إلى الحاشية والأعوان ، وان تسرب الداء إلى النفوس ، وبخاصة الضعيفة منها ؛ فأصبحت القصور تموج بالدسائس ، وتتجاوب بالمؤامرات ، وكثُوت في القصر الواحد جماعات وأحزاب تتجاذب السلطان ، وتنشط في حبك الواقعة وحوك المؤامرة . ولكن الربيع بن يونس وابنه الفضل كان لهما السبق في هذا المضمار ، وكأنا صادف هذا الحلق هوى في نفسيهما ، وميلا في فطرة كل منهما . فاستجابا له أحسن ما تكون الاستجابة ، وأقوم ما يكون الاتفاق ، وبرعا براعة تامه في الإيقاع بمن يريدان ، وفي التشكيل بمن يكرهان . ولقد امتد العهد الذي عاش فيه الوالد وابنه ، حتى شمل العصر الذي

* هناك فرق بين المؤامرات التي سنذكرها في هذا الفصل ، وبين تلك التي ذكرناها في الفصل السابق ؛ ذلك هو أن سادة القصور كانوا أبطال المؤامرات هباءً ، أما هنا فأبطالها من الرعايا الذين التحقوا بخدمة الخلفاء ، ولم يكن عند هؤلاء الرعايا من السلطان ما يمكنهم أن يتولوا بأنفسهم التشكيل بأعدائهم ، فاتخذوا الخلفاء وسيلة لهذا ؛ وأغروا صدورهم ضد هؤلاء الأعداء ، ومهروا في السعاية والوشاية بهم حتى استجاب لهم الخلفاء ، فكانت العواصف والفتن ؛ أما قصور الخلفاء فقد كانت هنا كما كانت هناك المسرح الذي ظهرت عليه هذه المؤامرات ، وجرت به تلك الاحداث .

تحدث عنه كلاً تقريباً من المنصور إلى المأمون ، فأتيح لدساتسهما أن
تطول ، والمؤامرات التي ولعاً بها أن تمتد .

وقبل أن نتحدث عن المؤامرات التي قام بها هذان الرجلان ، يجدر بنا
أن نقدم أمثلة قليلة لمؤامرات قام بها سواهما في قصور الخلفاء ، لنرى
كيف شاع هذا الخلق في القصور في هذه العهود .

استوزر السفاحُ خالد بن برمك بعد قتل أبي سلمة الخلال ، فقام خالد
بالأمر خير قيام ، وكان السفاح شديد الرضا عنه ، والتعاق به ، ولما مات
السفاح أقره المنصور على الوزارة ، فبقي فيها سنة وشهوراً ، وهو إلى نفس
المنصور كما كان إلى نفس السفاح . وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على
المنصور ، ولكن خالدًا كان يقف حجر عثرة في طريقه ، فبدأ المورياني
يسلك سبيل الحيلة ليعيد خالدًا عن القصر ، فذكر للمنصور تغلب الأكراد
على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرها سوى خالد ، فندبه إليها . فلما بعد
خالد عن الحضرة استبد أبو أيوب بالأمر .^(١)

ولم يكتف أبو أيوب بإبعاد خالد ، وإنما أخذ يسعى عليه ، ويحض أبا
جعفر على مكروهه ، ويشئ به ليسقطه من عينه ، لأنه كان يعرف ما فيه
من الفضل ، ويتخوفه على محله ، ويخشى أن يرده أبو جعفر إلى ما كان
يتقلده ؛ فلما كثر ذلك على أبي جعفر صرف خالدًا عن فارس ونكبه ،
وألزمه ثلاثة آلاف درهم ، ولم يكن عنده إلا سبعمائة ألف درهم ، فأقر بها
خالد ، فلم يقبل المنصور منه ، وأمر بمطالبة المبلغ كله ؛ فأسعفه صالح صاحب
المصلى بخمسين ألف دينار ، وأسعفه مبارك التركي بألف ألف درهم ، ووجهت

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل حفيد خالد وبين هارون ابنها . واتصل ذلك بأبي جعفر فتحقق عنده قوله : إنه لا يملك إلا ما حكي ، فصفتح له عن المال . فشقق ذلك على أبي أيوب ، وأحضر بعض الجهابذة ، ودفع إليه مالا ، وأمره أن يعترف أنه لخالد ، ودس إلى أبي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهمد فسأله عن المال فاعترف به ، فأحضر خالد فسأله عن ذلك ، فحلف بالله إنه لم يجمع مالا قط ، ولا ادخره ، ولا يعرف هذا الجهمد ، ودعا إلى كشف الحال ، فتركه أبو جعفر بحضرته ، وأحضر الجهمد فقال له : أتعرف خالد إن رأيته ، قال نعم يا أمير المؤمنين ، أعرفه إن رأيته ، فالتفت إلى خالد وقال : قد أظهر الله برامتك ، وهذا مال قد أصبناه بسببك . ثم قال للنصراني : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين ، وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبي أيوب بعد ذلك شيئا في خالد . (١)

ذلك مثل من أمثلة الوشاية في قصر أبي جعفر ، وقد استطاع المنصور أن يتعرف حقيقة الأمر ويتدارك الخطب قبل أن يستفحل ، ولكن هناك حالات أخرى لم تتضح لهذا الخليفة إلا بعد فوات الأوان ، وهاك واحدة منها :

ضمَّ المنصور رجلا يقال له فضيل بن عمران من أهل السكوفة إلى جعفر ابنه ، يكتب له ويقوم بأمره ، بمنزلة أبي عبيد الله مع المهدي ، وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأمر عبيده ، فنقل عليها مكان فضيل ، فسعت

(١) الوزراء والكتاب ٩٩ - ١٠٠ .

به إلى أبي جعفر ، وأدعت عنده أنه يلعب بجعفر ، فبعث المنصور بالريان مولاة ، وهرون بن غزنوان مولى عثمان بن نهيك إلى فضيل وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشوراً بذلك ، فصارا إليه فقتلاه ، وكان الفضيل ديناً عفيفاً ، فقيل للمنصور في ذلك ، وأنه أبرأ الناس مما قُرف به ، وأبعدهم منه ، فوجه رسولاً ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه ، فوجده قد قتل ولم يحف دمه ، وانصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر ، فطالب الريان ، فلما جرى به إليه ، قال له : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف مسلم بغير جرم ولا خيانة ؟ فقال الريان : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، فقال جعفر : ويلك ياربان ، أكلك بكلام الخاصة ، وتكلمني بكلام العامة ، خذوا برجله فألقيه في دجلة ؛ قال الريان . فأخذوا والله برجلي ، فقلت : أكلك ؛ فقال : دعوه ؛ فقلت أبوك إنما يسأل عن فضيل بن عمران وحده ، ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبدالله بن علي ، وقتل عبدالله بن حسن ، وغيره من أولاد رسول الله ظلماً ، وقتل أهل الدنيا من لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن الفضيل صؤابة تحت خصي فرعون (١) فضحك جعفر وقال : دعوه إلى لعنة الله (٢) .

فإذا تركنا عهد المنصور وانحدرنا إلى اليهود التي جاءت بعده ، وجدنا قصور الخلفاء تروج كذلك بالمؤامرات ، وتتجاوب بالفتن والدسائس ، ففي عهد المهدي كان يعقوب بن داود مسيطرًا على شئون الخلافة فترة من

(١) الصؤابة بيضة القمل والبرغوث ، والمراد أنه إذا قبض بفرعون في كثرة القتل كان كالصؤابة في جسده .

(٢) الجهمياري ١٢٩ — ١٣٠

الزمن ، فاستطاع أن يولى أخاه صالح بن داود البصرة فهجاء بشار
ابن برد بقوله :

همو حملوا فوق المنابر صالحا أخاك ، فضجّت من أخيك المنابر
فبلغ يعقوب بن داود هجأؤه ، فدخل على المهدي فقال له : يا أمير
المؤمنين . إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ؛ قال : وما قال ؟
فقال : يعفني أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، فأبى عليه ، وراجعه ،
ولم يزل به إلى أن أنشده بيتين فيهما هجر القول وفحشه . (١)

فقال المهدي : وجه إليه من يحمله لنا ، نخاف يعقوب أن يقدم بشار
على المهدي فيمدحه ، فيعفو عنه ، فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط ،
وقته وألقاه في البطيحة . (٢)

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع ذكرها الجهمشياري (٣) ،
وابن طباطبا (٤) ، وغيرهما من المؤرخين والكتاب ، ولكننا نكتفي هنا
بهذا القدر لنسارع فنتتبع الربيع بن يونس وابنه الفضل ، فمن أجملهما عقد
هذا الفصل .

مع أبي أيوب المورياني :

ينسب أبو أيوب المورياني إلى قرية تسمى « موريان » وهي من قرى
الأهواز ، واسمه سليمان بن مَخْلَسَد ، وكان خفيفاً طريفاً ، حسن التأني
لما يراد منه ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شيء إلا وقد

(١) لا أحب أن أورد هنا لما فيهما من ألفاظ نابية . . . وها في الأغاني ٣ : ٦٧

(٢) الأغاني ٣ : ٦٧ — ٦٨

(٣) انظر مثلاً ص ٢٦٤

(٤) انظر ص ١٦٢

فُطرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب
والسحر . (١)

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك في مناسبة
وقف فيها أبو أيوب موقف الحامى لأبي جعفر المنصور والمدافع عنه ،
فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة
والى مروان بن محمد على البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان في بعض
الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجج المال لنفسه ، فأحضره وقال له : هات
المال الذى اختنته . فقال : لا مال عندى ، فدعاه بالسياط ، فقال
أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت في بنى أمية
فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى
بنى هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلادا ، فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب
أبا جعفر ، ولكن أبا أيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى
أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبي أيوب ويشكره عليه . (٢)
فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة الموريان
وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه إلى قصره وأسندله بعض الأعمال ،
وكانت كفاءة أبي أيوب ، وإقبال أبي جعفر عليه كفيلا أن يرقيا بالرجل
ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد
فأسندت له وزارة المنصور ، وضمت إليه الدواوين مع الوزارة ، وغلب
على المنصور غلبة شديدة ، وصرّف أهله في الأعمال ، حتى قالت العامة :

(١) الجهمياري ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦

(٢) هذه القصة مضطربة في المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وأدق ما استطعت أن

أورده عنها . (انظر الجهمياري ص ٩٨ وابن خلكان ١ : ٢١٦)

إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنًا يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه ،
وَضربت العامة المثل بدهن أبي أيوب ، وبلغ من حب المنصور له ، أن
أم سليمان الطَّلُحِيَّة اتخذت لأبي جعفر مجلساً في الصيف ، وجعلت فيه
الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببرّده وحسنه ، ولما
قال لها : ما أحسن بهذا النعيم ؛ قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس
معي أبو أيوب يحدثني ويؤنسني ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنما هيأتك لسرورك
فتبعث إليه ، فبعث إليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب ، لم يطب لي هذا الموضع
ولذته دون أن تكون معي ؛ فدعا له أبو أيوب وأقام معه ^(١) .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالف
إحسانه وعظم كفايته ، كان هناك شخص آخر بادی الطموح يشغل منصباً
كبير الخطر في قصر المنصور ، ذلك هو الربيع بن يونس الذي كان له منصب
الحجابة ^(٢) ، وكان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور ، فصيحاً ، كافياً ،
حازماً ، عاقلاً ، فطناً ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ،
بصيراً بما يأتي ويذر ^(٣) .

وكان الربيع يتطلع إلى منصب الوزارة ، ولما كان كيف السبيل إليه
وشاغله أبو أيوب المورياني ، وهو من هو خبرة ومقدرة وحسن صلة
بالمَنصور ، ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ،
وكان إذا عزم على أمر اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى

(١) الجهمشيارى ٩٧ — ٩٨

(٢) ابن خلسكان ١ : ١٨٥

(٣) الفخرى ١٥٤

يكتب له النصر ، ويصل إلى الهدف الذي يبتغيه ، وهو في سبيل ماريه
لا يرحم ولا يكثر بالمثل العليا .

وهناك سبب هام مهد الطريق للربيع ، وذلك صعبه؛ ذلك هو ثقته ان
المنصور لا يدين كثيراً بخلق الوفاء ، وانه من الممكن ان يخطط في الغد
على من يرضى عنه اليوم ، وان يقطع الآن رأساً كان يقبله منذ عهد قريب
وكان ابو ايوب المورياني نفسه يدرك ذلك في المنصور ، رؤى انه كان
يجلس يوماً ، يأمر وينهى وهو في سلطانه وجلاله ، فأرسل له ابو جعفر
يستدعيه ، فامتنع لونه وتخبر ، ومضى إليه ثم رجع . فقال له بعض اصحابه
في ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلاً : زعموا ان الهازي قال للديك ما في
الأرض حيوان اقل وفاء منك . قال الديك : وكيف ذلك ؟ . قال :
اخذك اهلك بيضه فحزنوك ، ثم خرجت على ايديهم ، واطعموك
في اكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك احد
إلا طرت ها هنا وها هنا وصحت وصوتت وانا أخذت من الجبال
كبيراً فعلموني وألفوني ثم يخلى عني ، فأخذ صيدى في الهواء
وأجىء به إلى صاحبي . فقال له الديك : إنك لو رأيت من البراة في
سفائدهم المعدة للشئ ، مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أكثر نفوراً
منى . وعلق أبوأيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأتم لو علمتم ما أعلم
لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى . (١)

وإذا فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من
الدسائس والسعايات سلاحه البتار ، وليفتح قلبه ، ولينمى الأمل للذين يشون

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ .

بأنى ايوب ويسعون به ، ووجد الربيع ضالته فى ابان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبى ايوب ويشى به . حدث الجهمشيارى قال : (١) كان ابان يكتب لأبى ايوب وكان يشرف على امره كله ، فحسده مخلص ابن اخى أبى ايوب ، فرفع عليه سعاية إلى أبى جعفر بمائة ألف دينار ، فأمر المنصور بأخذه بها ، فأدخل ابان بيتاً وطئاً عليه بابه ، ثم ندم مخلص على ما فعله ، ولألمه عمه أبو أيوب لما وقف على ما كان منه ، فقال مخلص : أنا أودى عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أودى عنه كذا ، وقال مسعود أخو مخلص : أنا أودى كذا ، فتوزعها الموريانيون بينهم ، وأخرجوا أباناً من الحبس ، فخرج وفى نفسه ما فيها ، فكان يأتي أبى ايوب فيقيم عنده نهاره كله ، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبى ايوب ، فإذا انصرفوا وعلم أنهم قد وصلوا إلى منازلهم ، خرج حتى يأتي الربيع ، فيسعى بأبى ايوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصل الربيع ذلك إلى المنصور .

وتغير قلب المنصور على أبى ايوب شيئاً فشيئاً ، وأخذ حبه له يضعف رويداً رويداً ، واستمر الربيع فى زحفه وسعيه ، حتى لا بدع لأبى جعفر فرصة للتحقق أو اليقين ، وظل الحال على ذلك إلى أن كبا أبو ايوب كبوة ، وارتكب خطأ مالياً فاستغل الربيع ذلك أوسع استغلال ، وظل يغرى به المنصور حتى نال منه ، فأوقع المنصور بوزيره وفتك به ، أما هذه الزلة التى اقترفها الموريان فإليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف أفراد حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق أن رخصت أسعار

(١) الوزراء والكتاب ١١٦ .

الطعام في عهده رخصاً واضحاً ، فأشار أبو أيوب عليه أن يشتري طعام
سواد السكوفة وسواد البصرة ، وأن يدخره ليبيع عندما ترتفع الأسعار ،
طمعاً في الربح ، فأذن المنصور لوزيره في ذلك ، وجرت الصفقة باسم
أبي أيوب الذي كتب على نفسه كتاباً بما أخذ من مال المنصور ثمناً للطعام
الذي اشتراه ؛ ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة إلا جانباً واحداً .
هو جانب الربح ، ولم يحالف التوفيق هذه الصفقة ، إذ تتابع الرخص ،
فطالب المنصور وزيره بالمال ، وارحقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشيء بعد
الشيء ، حتى ساءت حالته المالية دون أن يوفي ما عليه .

وعنت للمورياني فرصة ليسدد للخليفة دينه ، وليستعيد ولو مؤقتاً مكانته ؛
وقصة ذلك أن المنصور كان يحب ابناً له يقال له «صالح» ويرقُّ عليه ، وكان
اقطع أولاده قطائع خلاه ، فكان يريد اقطاعاً له ، فقال مرة لأبي أيوب :
ما ترى حال ابني ليس له ضيعة ؟ فأجاب أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، بالأهواز
مزارع عاطلة ، تحتاج إلى ثلثمائة ألف درهم ، تعمربها ويقوم منها حاصل
جيد ، فأطلق له المنصور ثلثمائة ألف درهم ، وأمره بعمارته لابنه صالح ،
فأخذ أبو أيوب المال ، فأدى منه صدراً من خسارته في الطعام ، ولم يعمر
الضيعة ، وصار في كل سنة يحمل عشرين ألف درهم ويقول : هذا حاصل
ضيعة صالح .

تلك كانت زلة أبي أيوب ، ولست أحاول الدفاع عنه ، ولكنني أسجل
اعتقادي ؛ وهو أن المنصور أيضاً ملوم ؛ ملوم لأنه قبل أن يتاجر في اقوات
الناس . ولأنه أراد أن يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره
في الشطط .

وعلى أية حال فقد نقل « أبان » أنباء الضيعة الخيالية والتصرف في الثلاثمائة ألف درهم إلى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التي أُمِّل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع إلى المنصور فأعلمه : فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ . فأجاب . من « أبان بن صدقة » . وهو المصدر الخبير الذي لا يتطرق إلى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غرَّه المورياتى وخدعه ، واستجاب المنصور لإلحاح الربيع ، وقال لأبي أيوب : إني أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ؛ وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص .

وعرف أبو أيوب — بعد فوات الأوان — أن « أبانا » يأتي الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شيء ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : ولم تفعل هذا ؟ إن كان مخلد قد رفع عليك سعاية ، فقد خلصتكَ : فلماذا تريد قتلى ؟ . فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلدا أراد قتلى ؛ فقال له أبو أيوب : فعلتها ، اخرج فلا تقربنى ؛ فقال : آتى الربيع والله ، ثم لا أعود إليك ؛ وخرج حتى أتى الربيع ، وكشف بالعداء أبا أيوب . ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب إلى وكلائه بالأهواز أن يعجلوا بحيلتين :

أولا : أن يعمروا مكان الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل فيها ثانياً : أن يعمروا حافة هذه الضيعة بإقامة القرى والمنازل ، وغرس النخل والأشجار ، وإنبات النبات ، حتى إذا حط الركب رحاله بالقرب منها ، ظن الناظر إليها أنها عامرة مزدهرة .

ونفذ وكلام أبي أيوب أوامره بكل دقة وإخلاص ، وسار ركب المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال له أبو أيوب : هذه هي الضيعة ، ولولا فيضان الماء لآمكنك أن تجول فيها ؛ فرأى المنصور المهارة والخضرة ، فسكاد الأمر يشتبه عليه ؛ ولكن الربيع يتدارك الأمر فيؤكد للخليفة أن هذا تمويه ، ويحثه على البقاء إلى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه من الداخل ، وإلا كانت رحلة هباء ؛ فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى تجف الأرض ليجول فيها بنفسه .

وفي أثناء إقامته بالأهواز ، وهي موطن أبي أيوب المورياني ، عنت فرصة أخرى للربيع ليشير سخط الخليفة على الوزير ؛ وحكاية ذلك أن المنصور انتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، أنى أهوازى سمكى ، ولنا عجائز تحسن صنعة السمك ، فإن رأيت أن تأذن لى فأهيه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اتخاذه ، فضى لذلك . وبعد فترة نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ، قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسُلُ أبي أيوب قد دخلوا بشيء كثير من السلال ، فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف السمك التى اتخذت ضروبا من الصنعة الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريدك أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دس له فى هذا الطعام شيئا ؟ فخرج المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه . (١)

وهكذا نجح الربيع فى ان يبلغ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطعام السمى ، ولم يجدوا فيه بطبيعة الحال ما يضر .

المحل ، فأصبح الخليفة يخشى أن يسمه الوزير ، ولا نزاع أنه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة إلى أبعد درجات السوء عندما جفت الأرض ، فوجد المنصور أنها عامرة الظاهر غامرة في الداخل فلم يقل شيئاً ، وعاد إلى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفي بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : يا خوزي^(١) ، أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك في العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفي الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ .. فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للثمن فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فأقلني ؛ قال : لا يسعني مع عظيم جرمك ، وجيل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك ؛ وحبس وحبس أخاه وبني أخيه ، وطولبوا بالأموال ، وعُذِّبُوا وضيق عليهم ، ثم أمر المنصور بأبي أيوب فقتل ، قال صالح ابن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدث أن ملكاً من الملوك كان يسائر وزيراً له ، فضربت دابة الوزير رجل الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحبني أبداً وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبونني أبداً وقد قتلته ، فقتلهم جميعاً .

قال صالح بن سليمان فعلت أنه سيفعل ذلك في أهل المورياني ففعله وقتلهم جميعاً ، وما عدا ظني .

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفي في ذلك :

(١) نسبته إلى خوزستان ومنها أبو أيوب .

قد وجدنا الملوک تَحْمَد من أع
فإذا ما رأوا له النهى والام
شرب الكأس بعد حفص سلما
أسوأ العالمين حالا لديهم
طته طوعا أزمة التدبير
ر أتوه من بأسهم بنسكير
ن . ودارت عليه كف المدير
من تسمى بكتاب أو وزير
... وبموت أبي أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجئنا ثمار دسه
وائتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور (١) .

مع أبي عبيد الله معاوية بن يسار :

يقول ابن طباطبا (٢) إن أبهة الوزارة ظهرت في عهد المهدي بسبب
كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، فإنه رتب الدواوين ، وقرر
القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة ، وكان
يعمل كاتباً للمهدي ونائبا له قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم
على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي ، فكان غالباً على أمره ، لا يعصى
المهدي له أمراً ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير
به ، فلما مات المنصور ، وجلس المهدي على سرير الخلافة فوض إليه تدبير
المملكة ، وسلم إليه الدواوين ، وكان مقدماً في صناعته ، فاخترع أموراً .

(١) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة في كثير من المراجع ، وما سقناه هنا
خلاصة ما ورد في هذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ؛ ويمكن الرجوع إليها
في الجهشيارى ٩٧ - ٩٨ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١١٥ - ١١٦ ، ١١٧ - ١١٩
١٢٠ - ١٢٣ وفي الفخرى ١٥٢ - ١٥٣ وابن خلكان ١ : ٢١٥ - ٢١٦

(٢) الفخرى ١٥٧ - ١٥٨

منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة ، وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ ولا يقاسم ، فلما ولي أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وصنّف كتاباً في الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنّف كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنّفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلاً لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدي : في سنة ١٥٨ هـ خرج المنصور حاجاً وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس ، وفي الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهدته ، ولكنه قاوم ، وسار الركب بحث الخطأ ، غير أن المنية فاجأته قبيل دخوله مكة في السادس من ذي الحجة من نفس العام ، ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فسكتم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ألبس الربيع المنصور ملابسه وسنده وأجلسه خلف كتلة خفيفة ، يرى شخصه منها ، ولا يفهم أمره ، وحضر وجوه بني هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع إليه فكأنما يحدثه ، ثم عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة في تجديد البيعة للمهدي ، ففعلوا ، ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكباً ناحباً مهلناً موت أبي جعفر المنصور (١) .

هل كان هناك ما يدعو إلى هذا ؟ . . ثم أليس للموت حرمة ؟ . وكيف جاز للربيع أن يستخّر جثمان المنصور هذا للتسخير ؟ . لقد استخف المهدي واستخف وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢٠

بالربيع من أجل هذا التصرف ، وقال المهدي للربيع : ما منعك ههنا
أمير المؤمنين من هذا الفعل به . ١١ (١) والعجيب أن الربيع قام بهذا العمل
يرجو من ورائه الخطوة عند المهدي ورجاله ، ولكن المهدي ورجاله
سخرُوا به وكرهُوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول
في العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة خجوراً بما فعل ، مغتبطاً بما قدّم للخليفة الجديد ،
ولكن الأخبار كانت قد سبقته ، وتركت في نفس المهدي ووزيره أثراً
سيئاً ، فلما وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله إلى باب أبي عبيد الله ؛
فقال له ابنه الفضل : يا أبي ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتي
أبا عبيد الله . فقال الربيع : يا بني ، هو صاحب الرحل والغالب على
أمره ، فليس ينبغي لنا أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، فلما وصل إلى الباب
وقف عليه وطال وقوفه إلى أن جاءه الإذن ، فهم أن يدخل هو وابنه ،
ولكن الحاجب قال له : إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل ؛ فقال له
الربيع : ارجع فأعلم أبا عبيد الله أن الفضل معي ؛ ثم أقبل الربيع على الفضل
فقال : هذا من ذاك (٢) ، ثم خرج الأذن فأذن لهما جميعاً ، فدخل ، ولكن
أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كما كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن
سفره وسيره وحاله ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه في أمر المهدي ،
وتجديده بيعته ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه
بذكره ؛ فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ؛ فاغتاظ
الربيع ثم قام فخرج ، وقصد منزله منصرفاً ، وفي الطريق أقبل على الفضل

(١) الفخرى ١٥١

(٢) أي أن هذا التصرف موحى به من أبي عبيد الله .

فقال له : يا بنى ، أنت أحق ؛ فقال الفضل : ما حقى ؟ قال : أنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغى ألا نجى ، فإذا جئنا وحببنا كان ينبغى ألا ننتظر ، فإذا دخلنا فلم يأبه بنا كان علينا أن نرجع ولا نكلمه ؛ قال الفضل : نعم ، ذلك ما يدور برأسى ؛ قال الربيع : ذلك هو الحق بعينه ، ولم يكن الصواب غير ما فصلته كله ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لا خلقن جاهى ، ولا نفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله .^(١) وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقد أراد الزانى إلى المهدي ووزيره عن طريق إظهار الحرص على قيام خلافة المهدي وتجديد البيعة له ، ولكن مواهبه خائنه فأسف وكبا ، وإذ فشل فى الوصول إلى مأموله عن هذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفشل فيه ، وهو طريق الدس والائتار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجاه والمال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخط مؤقتاً بعض الأحداث الهامة لنصل إلى حقيقة مروعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سنة ١٦٣ هـ ، ومعنى ذلك أن هذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسه ومن سخطه البالغ على أبى عبيد الله ، مع أنهما كانا خلال هذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ — فيما قرأت — أن خلافاً قام بينهما فى أثناء هذه الفترة ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الحالكة تحب التشفى ، وتسكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادت هذه المدة كراهية فى ابن يسار وعزما على النيل منه .

(١) الجهشيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨

ولكن كيف الطريق للنيل من أبي عبيد الله ؟ . لقد جهد الربيع ليجد منفذا في أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التي بين أيدينا أن ابن يسار كان إلى السكّال أقرب ، فلم يجد الربيع بداً من أن يلجأ إلى أعداء أبي عبيد الله ، لهله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعادته ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القُشَيْرِيّ ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل معي ، فهل عندك في أمره حيلة ؟.. قال الرجل — والفضل ما شهد به الأعداء — : أبو عبيد الله ليس بجاهل في صناعته ، وإنه لأحقق الناس ، وما هو بظنّين فيما يتقلده ، لأنه أعفّ الناس ، حتى لو كانت بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمتممّ بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس بمتممّ في دينه ، لأن عقّده وثيق ، ولكنّ هذا كله يجتمع لك في ابنه ، لأنه ردى الطريقة ، مذموم السيرة ، يرمى بالزندقة ، والقول يسرع إليه ؛ فانفجرت أسارير الربيع ، وقبّل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة في الوزير (١)

وكان المهدي كما قلنا آنفاً شديداً على الزنادقة ، يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدرس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأله المهدي الوزير عن ابنه فأجاب بأنه حفظه القرآن ، وعلمه أمور الدين ؛ ولكن الربيع يواصل دسه وتحديّه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواه من الشبان على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به وبجاه أبيه ؛ فجد المهدي في طلبه حتى جىء به ، فسأله المهدي عن شيء من القرآن فلم يعرف ،

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩

فقال لأبيه : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . قال : بلى يا أمير المؤمنين ،
ولكن فارقني منذ مدة فنسيه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب إلى الله بدمه ،
فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدي :
إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيره ؛ فأمر المهدي
بعض من كان حاضرا بقتله ، فضربت عنقه (١)

تلك كانت المؤامرة الأولى التي دبرها الربيع ضد أبي عبيد الله ، وقد
كانت ضربة قاسية للرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن
هذه المؤامرة لم تصل بالربيع إلى ما أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل
للمهدي كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هذا تنفتق
عبقريّة الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بها الرجل نفسه ، ويوقع بها بين
الوزير وسيده .

قال الجهمياري (٢) : ولما قتل المهدي عبد الله بن أبي عبيد الله ، قال
الربيع لبعض خدام المهدي : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا
لا يضرك ، قال له : وما هو ؟ . قال : إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدي
فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه ، فسيتنكر ذلك عليك
أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه
عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟ . ففعل ذلك الخادم ، فكان هذا
مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله .

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤

ويروي ابن طباطبا هذه القصة مع شيء من التغيير فيقول (١) : ودخل أبو عبيد الله يوماً على المهدي ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فتمتدح المهدي بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، انتظارا لخروج الربيع ، فقال المهدي : يا ربيع أخرج ؛ فتدحى الربيع قليلاً ، فقال المهدي : ألم آمرك بالخروج . . . قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية ، وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج . . . فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال : يا ربيع ، إني أثق بأبي عبيد الله في كل حال ؛ ولكن الواقع أن المهدي داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبي عبيد الله : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر . (٢)

قال الجهشياري (٣) : ثم صرف المهدي أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣ هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧ هـ وقامه الربيع بن يونس ، وقال ابن طباطبا (٤) : إن المهدي قال للربيع : إني أستحي من أبي عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عني ، فحجب عنه ، وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا أنه تهيأ للربيع بذلك ما أراد من إزالة نعمة ابن يسار .

(١) الفخرى ١٥٩ - ١٦٠

(٢) انظر القصة أيضاً في الأغاني ٢١ : ٨٠

(٣) الوزراء والكتاب ١٥٦

(٤) الفخرى ١٦٠

وقبل أن ندع الربيع يجدر بنا أن نقرر أن الربيع لم يكن يوقع ويأتمر
برجال السياسة فقط ، وإنما كان يفعل ذلك أيضاً مع العلماء والقضاة .
حدث العتبي قال : كان بين شريك القاضي والربيع حاجب المهدي معارضة
فكان الربيع يحمل عليه المهدي ، فلا يلتفت إليه ، حتى رأى المهدي في
مناحه شريكا القاضي مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع
وقص عليه رؤياه ، فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ، إن شريكا يخالفك لك
وإنه فاطمي محض ، قال المهدي : على به ، فلما دخل عليه ، قال له :
يا شريك ، بلغني أنك فاطمي . قال له شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين
أن تكون غير فاطمي ، إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى ، قال : ولكني
أعني فاطمة بنت محمد (ص) قال : أفتلعبها يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاذ الله ؛
قال : فإذا تقول فيمن يلعبها ؟ قال عليه لعنة الله ، قال : فالتعن هذا
— يعني الربيع — فإنه يلعبها ، فعليه لعنة الله ، قال الربيع : لا والله
يا أمير المؤمنين ما ألعنها ، قال له شريك : ياما جن فما ذكرك لسيدة نساء
العالمين ، وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال ؟ قال المهدي : دعني من هذا
فإني رأيتك في منامي كأن وجهك مصروف عني وقفاك إلي ، وما ذلك
إلا لخلافك علي ، ورأيت في منامي كأنني أقتل زنديقا ، إقال شريك :
إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد
وعليه ، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام ، وإن علامة الزندقة بيّنة ،
قال وما هي ؟ قال : شرب الخمر والرّشا في الحكم ... قال صدقت والله
أبا عبد الله ، أنت والله خير من الذي حملني عليك (١) .

(١) ابن عسكربه : العقد الفريد ٢ : ١٧٨ - ١٧٩

مع البرامكة :

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادي ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سرّ أبيه ، وكان الفضل قد شب في قصر المنصور ، وانحدر منه إلى قصر المهدي ، ورأى أباه يشي ويدبر المؤامرات ، فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ؛ ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشيء ، هو أن الأحداث التي قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فإذا كان أبوه قد تآمر ضد أبي أيوب المورياني ، وأب عبيد الله معاوية بن يسار ، وشريك القاضي ، فإن مؤامراته كانت ضد أفراد معدودين ، ولم تتسع شهرتها ، أما مؤامرات الفضل فقد كانت ضد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذي ذهب ضحيته آلاف الناس وفيهم الأمين نفسه ، ومثل هذه المؤامرات والأحداث ، فضلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واسعة ، حتى ليوشك الإنسان أن يدعي أن غالبية المثقفين في بقاع الأرض يعرفون عنها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة ما بالدراسات الإسلامية .

ونسكة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة من الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتسّمت العلل والأسباب التي حدثت بالرشيد إلى أن يوقع بهم ؛ ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسي : هل من الممكن أن نضيف جديدا إلى ما قيل عن ذلك الموضوع ؟ . . . وأجيب بشيء من الثقة والأهلي ، أن هذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التي نقوم بعرضها في هذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد .

فأولا : جهد المؤرخون والكتاب في تعرف الأسباب التي دعت
الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول
إن هذا الاختلاف ، وذلك التمس للعلل ، يجعلني أعتقد أنهم كانوا أبرياء ،
وهذه البراءة أوقعت المؤرخين في حيرة ؛ لأنهم لم يتصوروا أن قسوة
كده تنزل بقوم أبرياء بين عشية أو ضحاها ، فراحوا هنا وهناك ينقبون ،
ويتسقطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلوا أن
الرشيد نفسه لم يكن يعرف لما ارتكب سببا جوهريا ؛ ولو فكروا
لأدركوا أن الإيقاع بالبرامكة لم يكن أشد عنفا من الإيقاع بأبي سلمة
الخلال ، وأبي مسلم الخراساني ، وأبي أيوب المورياني ، وغيرهم ممن تنوسى
فضلمهم على العباسيين ، ثم نكّل بهم وبذويهم أشد ما يكون التنكيل ،
وأقصى ما يكون الإيقاع ، دون جريرة تستدعي ذلك ، أو ذنب يقتضيه ؛
ومما يؤيد هذا الاتجاه ما أورده ابن خلكان : (١) أنه لما مات الفضل بن يحيى
وُجد في جيبه رقعة كتب فيها بخطه : قد تقدم الخصم [يقصد نفسه] والمدعى
عليه [يقصد الرشيد] في الأثر ، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجوز
ولا يحتاج إلى بينة . فحملت هذه الرقعة إلى الرشيد ، فلما قرأها لم يزل يبكي
يومه كله ، وبقي أياما يتبين الأسى في وجهه ؛ إذ كان يدرك أنه معتد فيها
أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب .

وثانيا - أحب أن أبرز حقيقة هامة هي أن الذى يستعرض
أحداث هذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام
هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظاً وأوفر نصيباً من نعيم الحياة ،

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٥

والأفقل لي بربك : مَنْ من وزراء هذا العهد وكبار رجاله غفل عنه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجاه ، دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ . لقد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧ هـ حيث أوقع الرشيد بهم ؛ فإذا نرى إذا قمنا هؤلاء بأبي سلمة الخلال ، الذي قتل في نفس العام الذي بدأ فيه النصر ؛ وبأبي مسلم الخراساني ، الذي نكب ، ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ؛ وبالفضل بن سهل ، الذي عُثِر به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل .. ؟ لا نزاع بعد هذا أن السؤال لا ينبغي أن يكون : لماذا أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من عسف المنصور ؟ ولم لم يُترَم أحد منهم بالزندقة في عهد المهدي ؟ . ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاماً وهو السريع التغير الحاد المزاج ؟ .

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، ثم سجن آخرين ؛ وهذا في تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التتكيل ، فعهدنا بالإيقاع أن يُسَقَتَلَ مع الرجل أهله وذووه ؛ وإذا فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقت في الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ . . أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التي سارت بها الركبان ، أخذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيح للرشيد من شهرة عالمية لم تنح لسواه ، وصيت ذائع لم يتوافر لغيره ، لظلت نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .

وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العناية والاهتمام ، وقد صورهم

ابن طباطبا تصويراً بلغ الغاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم «الدولة البرمكية» ،
ويبتدىء حديثه عنهم بكلمة قصيرة رائعة ، هالك نصها : اعلم أن هذه الدولة
كانت غمرّة في جبين الدهر . وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها
الأمثال ، وشدّت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا
أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسماعدها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم
زاهرة والبحار زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ؛ أسواق
الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم
عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ السّف ، ومعتصم الطريد (١) .

وينسب البرامكة إلى جدهم برمك ، وكان برمك هذا كاهن بيت النار
بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالاشراف على هذا البيت ، كما كان قصى وأولاده
من بعده يقومون بسدانة السكبة في الجاهلية (٢) والبرامكة بهذا ينتمون
إلى أصل فارسي عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل وأشرف عمل في دولة
الفرس قبل الإسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان في عسكر قحطبة
ابن شبيب الذى سبق الحديث عنه في الفصل السابق ، وكان خالد يتقلد
خراج كل ما افتتحه قحطبة من السكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ،
فكان يقال : إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا وخالد عليه يد ومنة ،
لأنه قسّط الخراج ، فأحسن فيه إلى إهلته ؛ وكان خالد مع قحطبة على سطح
من سطوح منازل القرية ، التى بها عسكرهم ، فرأى خالد قطعان الوحش تقبل

(١) الفخرى ١٢٣

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩

نحو هذه القرية ، فقال لقطبته : أيها الأمير قد اتينا فر من ينادى بالسلاح ،
فمجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك . ؟ فقال خالد : لا تتشاغل
بكلامي ، وتمرّ بالنداء ، ففعل ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش
أموي يقوده البطل « ابن ضَبَّارة » وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل
قائدهم ، وسئل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين . . ؟ فأجاب :
رأيت الوحش ينفر نحونا فعلبت أن شيئاً عظيماً أخافه وأذعره . ولما قُتل
ابن ضَبَّارة غلط قحطبة فأرسل رأساً غير رأسه إلى أبي مسلم ، ثم عُرف
رأس ابن ضَبَّارة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فنهض خالد بن برمك وقال :
إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثاني (١) .

ولما عقدت البيعة لأبي العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، أُعجب
السفاح بفصاحة ، فقال له : ممن الرجل ؟ قال : مولاي خالد بن برمك ،
وقص عليه قصته ، وقال أنا كما قال الكميّ بن زيد :

وما لي إلا آل أحمد شيعة^٢ وما لي إلا مذهب الحق مذهب

فأعجب به أبو العباس ، وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل إليه
بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ،
وكان سبيل ما يُثبّت في الدواوين أن يُثبّت في صحف ، فكان خالد أول
من جعله في دفاتر (٢) .

ولما قُتل أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيراً للسفاح ، ويقال إنه
تشام من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن كان يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل

(١) الجهشياري ٨٧ - ٨٨ بتصريف فقد أورد مسأله الرأس قبل الحديث عن المعركة

(٢) الجهشياري ص ٨٩

على وزارة السفاح حتى توفي هذا ، وتوفي أخوه المنصور ، فأقر خالد آ على وزارته ، فبقي سنة وشهوراً ، وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على المنصور ، فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرها سوى خالد ، فندبه إليها ، فلما بعد خالد عن الحضرة ، استبد أبو أيوب بالأمر كما سبق (١) .

ويقول المسعودي (٢) : إنه لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ؛ لا يحيى في رأيه ، ولا الفضل ابن يحيى في جوده ، ولا جعفر في كتابته وفصاحته ، ولا محمد في رأيه وهمته ، ولا موسى في شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثني ثمة قال : كان أصحابنا يقولون « لم يكن يرى لجلس خالد دار إلا وخالد بنسائها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حملة عليها » . وكان خالد أول من سمي المستمحيين الزوار ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف (٣) .

أما عن يحيى بن خالد ، فقد كان محظوظاً في بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد في حجره ، ورضع لبان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والأغانى ٣ : ٣٦

وضعه المهدي تحت كفالة يحيى ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره الهادي على وضعه أثناء خلافته ، فكان يحيى للرشيد صفياً وأباً رحيماً ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهادي حينما أراد أن يخلع نفسه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنه الهادي لذلك . (١)

فلما تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلسنى هذا المجلس بركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شيء ، ودفع إليه خاتمه (٢) فنهض يحيى ابن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمّر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بايعاً ، ليدياً سديداً ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحاً بكل لسان ، حلماً عفيفاً ، وقوراً مهيباً ، وله يقول القائل :

لا ترانى مصالحاً كف يحيى انى إن فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخل راحة يحيى لسنحت نفسه ببذل النوال (٣)

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران وإقبالها عليه ، وتجيّب ابنها فيه ، ومن أجل هذا كان يحيى يعرض عليها أمور الدولة ، ويؤرد ويصدر عن أمرها ،

(١) ابن خلدون : العبر ٣ : ٢٢٣

(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤

فلما مات الخيزران سنة ١٧٣ هـ استقل يحيى بالامر ، وأصبح يورد
ويصدر عن رأيه . (١)

ومن أعمال يحيى أنه شق نهراً كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت بسببه
أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ، وتقديم
بحمله من مصر إليهم ، وأجرى على المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين
والآداب واتخذ كتاباً لليتامى . (٢)

وكان ليحيى بن خالد أبناء أربعة ، هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم
سادة نجب ، وعباقة أجداد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصيرة :

الفضل بن يحيى : كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ،
وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمه زبيدة بنت منير
الرشيد ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

كفى لك غمراً أن أكرم حرة غذتك بشدي والخليفة واحد
لقد زنت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهد (٣)

وكان الرشيد يدعوهم ، أخى ، وقد أولاه الخاتم ، ثم رأى أن ينقل
الخاتم إلى جعفر ، إذ كان الفضل متزماً لا يشرب النبيذ ، ولا يميل إلى
المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى : إني
أحشمك أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فأكفنيه ؛ فكتب

(١) الجهشيارى ١٧٧ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣

(٢) الجهشيارى ١٧٧

(٣) ابن خلدون ١ : ٤٠٨ - ٤٠٩ والفخرى ١٧٧

يحيى إلى الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى
شمالك ؛ فكتب إليه الفضل : قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخى ،
وأطعت ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة
طلعت عليه (١) .

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك
الحين ، وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء ينقُص مروعى
ما شربته أبدا (٢) .

وفى سنة ١٧٢ هـ ظهر يحيى بن عبدالله ببلاد الديلم على ما سلف ذكره ،
وقوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض إليه الفضل ، وقد استطاع
الفضل بدهائه أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن أمّنه ووعدّه
وأوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبرّ الفضل
وشكر فعله (٣) .

وفى سنة ١٧٦ هـ قلّده الرشيد المشرق كله من النهر وان إلى أقصى بلاد
الترك فشنّخص إلى عمله سنة ١٧٨ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه
وساروا معه ، فلما وصل إلى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبني المساجد
والخياض والربط ، وأحرق دقاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل الزوار

(١) ابن خلّكان : ١ : ٤٠٨ - ٤٠٩

(٢) الجهشيارى ١٩٤

(٣) الجهشيارى ١٩٠

والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت (١) .

وبلغ كرم الفضل العاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
علمهم المفحمين أن ينطقوا الشع سر رصيناً ، والباخلين السخام (٢)

وكان الرشيد يثق فيه ويحله ، ومن أجل هذا جعل محمداً ابنه في حجره ،
وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد وضم إليه أعماله ودواوينه (٣) .

جعفر بن يحيى : كان جعفر بن يحيى فصيحاً لبيباً ، ذكياً فطناً ، كريماً حليماً ،
وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ،
وجد أخيه الذي غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مر ذكره ، فصار جعفر
متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ،
حتى يقال إن الرشيد اتخذ ثوباً فضفاضاً ، كان يدخله هو وجعفر جميعاً بملا بسهما ،
وقلده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب والطرز في جميع الكور (٤) .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تُقَطَّعَ الرحم القريب وتُكْفَرُ النَّفْسُ

بِمَعْنَى ولا كتقارب القلبين

يُدْنِي الهوى هذا ويدني ذا الهوى فإذا هما نفس ترى نفسين (٥)

(١) ابن خلكان ١ : ٤٠٩

(٢) الجهشيارى ١٩٥

(٣) المرجع السابق ١٩٣

(٤) الجهشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧

(٥) الأغاني ١٧ : ٢٦

والذى يتطلع إلى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما حياة الرشيد وملكته ، ورُدَّت لهما جميع الأمور فيها ؛ فبينما كان المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية إلى جعفر ، وقد قُلت سنة ١٧٦ بالاضافة إلى عمله مع الرشيد ، وقد أقام جعفر مع الرشيد وأناب عنه من أدار هذه البقاع الشاسعة (١) . ثم كما كان محمد الأمين فى حجر الفضل كان عبد الله المأمون فى حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمام ، وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له ، وأخذ الإيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به إلى العمال (٢) . وقد امتاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجند واللهم ، فكان بذلك أقرب إلى نفس الرشيد من أخيه كما مر ، وقد وصل جعفر إلى مكانة من الرشيد أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة وبما يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس وقد رواها الجهشيارى (٣) والأصفهاني (٤) وابن خلكان (٥) وابن طباطبا (٦) . وهاك موجزاً لها :

قال إبراهيم بن المهدي : جلس جعفر بن يحيى يوماً للشرب . وأحب الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هيء المجلس ولبسنا الثياب المصبغة . [وكانوا إذا جلسوا فى مجلس

(١) الجهشيارى ١٩٠

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) الوزراء والكتاب ٢١٢ -- ٢١٤

(٤) الأغاني ٥ : ١١١ -- ١١٢

(٥) وفيات الأعيان ١ : ١٠٦

(٦) التلخىر ١٨١ -- ١٨٢

الشراب واللهو لبسوا الثياب الحجر والصفير والخضر .]

ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد سوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسنا نشرب ، ودارت السكتوس وخفقت العيدان ، فجاء في هذه الساعة عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يناديه ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالاً جلييلة فلم يقبل ، فكان ذلك سبباً موجدة الرشيد عليه ، فأدخله الحاجب ظاناً أنه عبد الملك الذي أذن له جعفر بادخاله ؛ فلما دخل عبد الملك ورآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب ، وأدرك عبد الملك الحرج الذي وقع فيه جعفر وأصحابه ، فدعا غلامه وناولته سواده وقلنسوته ، وأقبل على المجلس وسأله وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم ، فدنا منه خادم فألبسه حريرة ، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبذ فأتوه برطل فشرب ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ؛ ثم باسطنا ومازحنا ، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحيأؤه ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك فما تحيط بمقدرتي بمكافأة ما كان منك ؛ فقال : إن في قلب أمير المؤمنين سخطاً ، ففسأله الرضا عني ؛ فقال جعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين . قال : وعلى . . . و . . . درهم ، قال جعفر : إنها لعندي حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنها أنبل لك ، وأحب إليك ؛ قال : وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ؛ قال : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته ؛ قال : وأحب أن

يخفق لواء على رأسه ؛ قال : قد ولّاه مصر . وانصرف عبد الملك ونحن
نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ،
ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضى ومحمد بن الحسن
وابراهيم بن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خُلع عليه وزوج ، وحملت البدر
إلى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله ، فلما
صرنا إليه قال : تعلقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم
علم آخره ، فإني لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأتُ القصة كما كانت
من أولها إلى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسنَ والله ، حتى
إذا أتممت خبره قال : ما صنعتَ به ؟ فأخبرته بما سأله ؛ فجعل يقول :
أحسنْتَ ، أحسنْتَ .

ولما هاجت العصية بالشام سنة ١٨٠ هـ قال الرشيد لجعفر : إما أن
تخرج إليها ، أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : أنا أتيك بنفسى : وشخص لها ،
فسكنَ الفتنة ، وأعاد الناس إلى الأمن والسكون (١) .

وقد زاد اتصال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل معه فى كل أمر من
أموره ، فى الجد واللّهو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من ذلك ،
وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمنُ أن
ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيتَه ، واقتصرت به على ما يتولاه
من جسيم أعمالك لكان أحبَّ إلىَّ ، وآمن عليه عندي ؛ فطمأنه الرشيد ،
وقال له : لا عليك يا أبت (٢) .

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٠

(٢) الجهمياري ٢٢٤ - ٢٢٥

وقبل أن ندع يحيى وابنيه هذين نسوق عنهم القصة الطريفة التالية :
قال أبو القاسم الزهري : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين ابنيه الفضل
وجعفر ، فإذا بأبي الينبغى العباس بن طرخان واقف على الطريق فناداني :
يا زهري ، فاستشرفت له ، فقال :

سجبتُ البرامك عشرا ولا^(١) وبقى كراء وخبزي شرا
فسمعه يحيى ، فالتفت إلى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما ؟ قال الزهري :
فلما كان من الغد جاءني العباس فقلت له : ويحك ! ما هذا الذي عرّضت له
نفسك بالأمس ؟ . . فقال : اسكت ، ما هو إلا أن انصرفْتُ إلى منزلي ،
حتى جاءتني من قبل الفضل بذرّة ، ومن قبل جعفر بذرّة ، ووهب لي
كل واحد منهما دارا ، وأجرى لي ما يكفيني^(٢) .

محمد و موسى : كان هذان من سادة رجال العصر وأبجاده ،
ولكنهما لم يصلّا إلى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما إبراهيم
الموصلی مع الفضل وجعفر بقوله : أما الفضل فيرضيك بفضله ،
وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى
فيفعل ما لا يجد^(٣) .

وفي الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة ، سيّد ومتبوع

(١) ولا : متوالية .

(٢) الجهشيارى ٢٠١ — ٢٠٢

(٣) الجهشيارى ١٩٨

الخير فيهم إذا سألت بهم مفرق فيهم وبمجموع (١).

وكان ليحيى ابن خامس يسمى ابراهيم ، توفي وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور في إدارة الدولة ومناصبها ، وإنما يتصل به أن يحيى أحضر يوماً المؤدبين والمشرفين الذين ضم إليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال ابراهيم ؟ فقالوا : قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر في كذا ، واتخذنا له من الضياع . . قال : ما عن هذا سألت ، هل اتخذتم له في أعناق الرجال مناً ؟ فسكتوا ؛ فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو إلى هذا أحوج ، وأمر بحمل ٥٠٠٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه في الناس (٢).

هذا هو يحيى وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهد ، وسادة هذا العصر غير منازعين ، وبينما كان هؤلاء يشغلون هذه المكانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ، ويشي بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم على ما سيحییء مفصلاً ، وكانت النتيجة لتلك الوشاية أن بدت من الرشيد مظاهر الفتور تجاه البرامكة ، وفيما يلي صور لذلك الفتور :

في سنة ١٧٩ هـ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ؛ وكانت أهمية هذا — بالإضافة إلى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين إليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولد سائسه ، وجعل الرشيد أقرب إلى الاستجابة له (٣).

(١) المسعودی ٢ : ٢٨٢

(٢) الجهشيارى ١٨٠

(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣

وفى نفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل الرشيد منصور بن يزيد بن يزيد بن خالد المهدى ، وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمال شيئاً فشيئاً ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ١٨٣ هـ سخط على الفضل ، فشحص إليه إلى الرقّة ، ومعه أمّه زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقره مع الأمين لحضائنه ، ولم يردّ إليه شيئاً من أعماله (١) .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلم ، فرد الرشيد رداً ضعيفاً ؛ ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال : أيدخل عليك منزلك أحدثه بدون إذن ؟ فقال : لا . قال فما بالناس يدخل علينا بدون إذن ؟ . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ، حتى أن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذا قد علمت ، فإنى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيها ؛ فاستحى هارون ، وقال ما أردت ما تكره (٢) .

وحدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله يحيى بن خالد خيراً ، تصدى للأمور وأراحنى من السكد ، ووفّر أوقاتى على اللذة ، ثم دخلت عليه وقد شرع يتغير عليهم ، وكان الفضل بن الربيع

(١) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الأثير ٦ : ٤٩

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور
دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها ؛ قال : فعلت أنه
يعينكهم ، ثم نكبههم عقيب ذلك (١) .

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع
لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ،
بل استمر يشى ويأتمر حتى كل سعيه بالظفر ووصل إلى الغاية التى أجهدها
نفسه من أجلها ، وتمت نكبة البرامكة ، التى يرونها المؤرخون كما يلي :

كان الرشيد قد حج ومعه جعفر بن يحيى ، فلما عادا من الحج ركبا
السفن من الحيرة إلى الأنبار ، ثم صحبه جعفر إلى قصر الخلافة
بالأنبار ، وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع
النساء لم أفارقك ؛ فصار جعفر إلى منزله وواصل الرشيد الرسل إليه
بالإلطاف إلى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسروراً .
(وقيل إنما استدعى غلامه ياسراً) وقال : قد انتخبك لأمر لم أر له
محمداً : ولا عبداً لله ، فحقق ظنى واحذر أن تراجعنى فتهلك ، قال : يا أمير
المؤمنين ، لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت ؛ قال : اذهب إلى جعفر
ابن يحيى وجئنى برأسه الساعة . فوجم لا يحسب جواباً ، فقال له :
مالك ؟ ويلك ؟ قال : الأمر عظيم ، وددت أنى مت قبل وقى
هذا ، فقال : امض لأمرى ، فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل قى سياقى عليه الموت يطرق أو يُفادى

(١) الجهشيارى ٢٢٥ - ٢٢٦ والفخرى ١٨٤

وكل ذخيرة لا بد يوماً
ولو فوديت من حدث الليالي
وإن بقيت تصير إلى نفاذ
فديتك بالطريف وبالتلاد

فقال جعفر : يا مسرور ، سررتني بإقبالك وسؤتي بدخولك من غير إذن ، فقال : الأمر أكبر من ذلك ، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك فقد أمرني أن آتيه برأسك ؛ فوقع جعفر على رجليه يقبلهما ، وقال : عاود أمير المؤمنين ، فإن الشراب قد حمله على ذلك ؛ فقال : ما أظنه شرب اليوم ؛ قال : دعني أدخل دارى وأوصى ؛ قال : لا سبيل إلى الدخول ، ولكن أوص ما بدا لك ؛ قال : لى عليك حق ، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة ؛ قال : تجدنى سريعاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين ؛ قال : خذنى معك ، وأعلمه أنك نفذت أمره ، فإن ندم أخبرته بالحقيقة ، وإن أصرّ عدت فنفذت ما يريد ؛ قال : أما ذلك فنعم . وسار به إلى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ، ودخل على الرشيد فأخبره بقتله ، فصاح الرشيد : وأين رأسه يا ابن اللخنام ؟ . فعاد مسرور إلى جعفر فضرب عنقه وحمله إلى الخليفة رأسه (١) .

ووجه الرشيد من أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحوّل الفجبل ابن يحيى ليلاً فحبس فى بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى فى منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الرشيد من ليلته إلى سائر البلاد فى قبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأسبابهم وكل ما لهم ،

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨-٢٨٩ وابن الأثير ٦ : ٥٨ وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦

فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد وأمر أن يُنصب رأسه على جسر ،
ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر (١) .

ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ، وللفضل إلا أربعون
ألف درهم ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء
ولا لجعفر شيء (٢) .

تلك كانت نكبة البرامكة ، فما أسبابها ؟ وأحب قبل أن أروى هذه
الأسباب أن أذكر أنها لو كانت أسباباً واضحة ترتبت عليها هذه الكارثة
لأوردناها قبل إيراد الحادثة نفسها ، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة
تمت ، ثم أخذ المؤرخون يتلصسون العائل والأسباب لها بعد حدوثها ،
فلعل ما نسير عليه هنا هو تصوير للواقع كما كان . أما هذه الأسباب
فإليك عنها البيان :

مسألة العباسية : روى أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر ، ولم يكن له
صبر عنه وكان الرشيد أيضاً شديد المحبة لأخته العباسية ، وكانت من أعز النساء
عليه ، ولا يقدر على مفارقتها ؛ فكان إذا غاب أحدهما (جعفر أو العباسية)
لا يتم له سرور ، فرأى أن يُزوّج جعفر من العباسية ليحل لها أن
يجتمعا ، ولكنه اشترط على جعفر أن يكون هذا الزواج لهذا الهدف فقط ،
وحرّم عليه الاجتماع بالعباسية دون أن يكون هو ثالثهما ، فتزوجها على
ذلك ، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها عينه ، ودون

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨

(٢) الجهشباري ٢٤١

أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسية أن تلتقي بزوجها وتخلو به ، ولمَحَتْ له بذلك ، فأعرض كل الإعراض ، فلما أعيته الحيلة بعثت إلى عتابة أم جعفر ، وطلبت منها أن تقدمها إلى ابنها جعفر كأنها جارية من جواريتها ، فامتنعت عتابة ، ولكن العباسية طمأنتها وأذرتها وأغرته حتى قبلت ، ووعدت ابنها بأنها ستقدم إليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجبها جعفر ، وأخذت تسوِّف حتى تشوق جعفر ، فقالت - بعد أن اتفقت مع العباسية - : سأقدمها لك الليلة ؛ فشرب جعفر بعض النبيذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسية له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ ... قال : وأى بنات الملوك أنت . ؟ . قالت : أنا مولاتك العباسية ؛ فذُعر جعفر ، وذهب إلى أمه وقال لها : بعثني والله رخيصاً ، واشتملت العباسية منه على ولد ، وتمازجت حينما ظهر بها الحمل ، ثم استأذنت في الذهاب للحج فذهبت ووضعتة هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمره إلى غلام وحاضنة . (١)

حكاية يحيى بن عبد الله : سبق لنا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استنزل الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أماناً ، واستقبله استقبالاً حسناً ، ثم وُشىَ يحيى بن عبد الله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفكك الرشيد به

(١) المسعودى ٢ : ٢٨٦ - ٢٨٧ وابن الأثير ٦ : ٥٧ وابن خلكان ١ : ١٠٧

والفخرى ١٨٥

انصل بجعفر وقال له : اتق الله في أمري ، ولا تتعرض أن يكون غداً
خصمك محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً ، ولا آويتُ
محدثاً ، فرق له ، وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله ؛ قال : فكيف
أذهب ولا آمن أن أؤخذ ؛ فوجهه معه من أبلغه مأمنه . (١)

ويرى ابن خلدون (٢) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم
على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من
المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له
معهم تصرف في أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمرؤا
مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ،
من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم فعظمت الدالة منهم ،
وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ،
وقصرت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٣) أن سعيد بن سالم سئل عن جناية البرامكة التي
استوجبت غضب الرشيد فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل
الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل ملول ، والله لقد استطال
الناس أيام عمر بن الخطاب ومارأوا مثلها عدلاً وأمناً ، وسعة أموال وفتوح ؛
وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ،
ورميتهم بآمالهم دونه - والملوك تتنافس بأقل من هذا - فتعنت عليهم وتجننى ،

(١) الأغاني ١٧ : ٤٣ وابن الأثير ٦ : ٥٧

(٢) المقدمة ١١ - ١٢

(٣) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

وطلب مساوئهم؛ ووقع منهم بعض الإدلال خاصة جعفر والفضل .
تلك هي الأسباب التي يذكرها المؤرخون، وهي كلها كما يبدو لي أسباب
ساذجة يمكن نقدها أو نقضها، ولكن الأسباب الحقيقية كانت خفية فيما
أعتقد؛ إنها تلك اليد التي تعبت في الظلام، وهذه الأفعى التي تنفت سُمها
من وراء ستار، وقد انتبه لذلك ابن خلدون ^(١) فقال إنه بسبب نبوغ
البرامكة وبعد صيتهم، كُشفت لهم وجوه المنافسة والحقد، ودب إلى مهادهم
الوئير عقارب السعاية، وقد تولى كبر هذا الأمر الفضل بن الربيع
وأشباع الفضل بن الربيع، الذين كانوا يختلفون خلف هذه الأسباب،
فيعظمون صغيرها، ويبرزون خفيها لدى ولي الأمر، وإليك عن هذا
بعض التفاصيل:

في أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة، ولم يكن للفضل
ابن الربيع سلطان يذكر، وكانت الخيزران — صاحبة الأمر والنهي في
الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر، خوفاً منه ومن وشايته وسعايته،
ولما يش الفضل من استرضاء الخيزران، أراد أن يتقرب إلى الرشيد عن
طريق زبيدة، فوثق بها صلته، وأظهر لها الخضوع والامتثال، ولكن
زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلي النفوذ في حياة الخيزران، ومن ثم لم ينل
الفضل شيئاً يذكر من نباهة الذكر إلى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ،
يقول ابن الأثير ^(٢) في ذلك أنه «لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها،
ودفنها في مقابر قریش، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم الفضل بن الربيع

(١) المقدمة ص ١٢

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٠

وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف الخضرى^(١) : ان الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدي ، إني كنت لأهم لك بالشئ من التولية وغيرها ، فتمننى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر . وكان بيده نيابة عن والده .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدماً ، وأقوى مركزاً من أن يزحزحهم الفضل يسراً أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج إلى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل إلى بغيمته ، وكان في حيله واثماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب المورياني عيناً له على أبي أيوب ، كذلك اتخذ الفضل إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عيناً له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيري عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلي بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة وأوعز إليه أن يشي لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمة أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فخبسه الرشيد ثم أطلقه^(٢) .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ، ويدرك مكانتها لديه ، فعرفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى في القصر كما كانت الخيزران تفعل في حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى وجعفر — كما سبق — إلى العهد

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

للمأمون ، وشدّد جعفر الأيمان في الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ،
فاتخذ الفضل من هذا فرصة طيبة ، ليغري زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها
أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله
ابن سليمان بن وهب فيقول : إن من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم
بالفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما ررى أن الفضل بن الربيع
دخل على يحيى وقد جلس لتضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر
رقاع ، فتعامل يحيى في كل رقعة بعلة ولم يوقع في شيء منها ، فاضطرب
الفضل غيظاً وخرج وهو يقول :

حتى وعسى يثنى الزمانُ عُنانه بتصرف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف وتحدث من بعد الأمور أمور^(١)

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يضر السوء فأخذ « يستر المحاسن
ويظهر القبائح » كما يقول ابن خلكان^(٢) ، ولهذا نجده خلف الأسباب
الساذجة التي سبق إيرادها ، فهو الذي كان ينقلها مباشرة أو عن طريق
غير مباشر ، وهو الذي كان يبرز منها ما خفي ويعظم ما صغر :

ففي حكاية يحيى بن عبد الله ، عرف الفضل قصة إخلاء سبيله عن
طريق العين التي كانت له في قصر جعفر ، فنقل الخبر إلى الرشيد مع
التخويف من يحيى بن عبد الله ، والتحذير من أن يصل إلى الديلم فتتجمع

(١) ابن خلكان ١ : ٤١٢

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

حواله الجموع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة في هذا المساء ، فجعل الرشيد يلقيهم جعفرأ ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى؛ فأجاب: هو بحاله في السجن؛ فقال: بحياتي؟ ففطن جعفر وقال: لا وحياتك وقص عليه أمره ، وقال : علمت أنه لا مكروه عنده ؛ فقال الرشيد : نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي . فلما قام جعفر . نظر له الرشيد وقال : قتلتني الله إن لم أقتلك (١) .

وفي حكاية العباسية نجد زبيدة — وقد ملأها ابن الربيع حنقاً على البرامكة ورغبة في التخلص منهم — تقص على الرشيد خبر اتصال جعفر بزوجه ، دون أن تذكر له حيلة العباسية على جعفر في ذلك ، وتضيف زبيدة : أن رائحة هذه الفضيحة قد شاعت في جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها (٢) .

ولم يكتف الفضل بن الربيع بهذا بل أخذ يدس إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة ، وأنهم ملاحدة وثنيون يحثون إلى دين أبيهم القديم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة إليهم ، ويوعز إلى مغل أن يغني الرشيد بهذين البيتين :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد (٣)

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨ - ٥٩

(٢) المسعودي : مروج الذهب : ٢ : ٢٨٧

(٣) أحمد أمين : هرون الرشيد ١٢٢

ودس الفضل كذلك من رفع إلى الرشيد مقطوعة شعرية بدون
توقيع ، جاء فيها :

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الد
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد
ولا يباهى العبد أربابه إلا إذا ما بطر العبد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضر لجعفر السوء (١) .

وكتب للفضل النجاح ، وتمت نكبة البرامكة ، ولكن العجيب
أن الإيقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع ، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكرهم ؛
حدث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلى .
وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادي ويطلب مني أن أعود إليه
للسمر والآنس ، وقد ذهبت إليه مرة فاقبل عليّ يستنشدني ، ويسألني
فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتى المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

« (١) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨ »

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ،
وما رأيت منه خيراً بعد ذلك (١) .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع
لخدمة الرشيد في حضرته ، وأضاع ما وراء بابه ، ثم ندم الرشيد على ما كان
منه في أمر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه نحوهم ، وخاطب جماعة من
خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم ، وكان كثيراً
ما يقول : حملونا على نصحاتنا وكفائتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ،
فلما صرنا إلى ما أرادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد :

أقلوا عليهم لا أبا لا ييكم

من اللوم ، أوسدوا المكان الذي سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهمة ،
وأن الرشيد توفي وفي الديوان أربعة آلاف خريطة لم تفض (٢) .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أن يرثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذه
على ذلك (٣) ولعل الرشيد أحس بأنه لو ترك للشعراء العنان لأسرفوا
في رثائهم وذكر مآثرهم ، مما قد يهيج الشعور ضد الخليفة ، ويكرر ذكرى
هذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لها
على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه إذا كان الرشيد استطاع بتاجه

(١) الأغاني ٣ : ١٦٤

(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨

(٣) الفخرى ١٧٤

وصولجانه أن يسجن ويقتل ، فما كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر
ولا أن يمسك منه قلبه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون
في البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون في أدهم الخالد ما كان
لبنى برمك من مآثر وأفضال ، وفيما يلي نماذج من ذلك الرثاء :

قال الرقاشي :

أخىَّ استرحنا واستراحت ركائبنا

وأمسك من يُجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا : قد أمنت من السرى

وقطع الفيافي فدّ فداً بعد فدود

وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر

ولن تظفري من بعده بمسود

وقل للعطايا : بعد فضل تعطّلي

وقل للرزايا : كلَّ يوم تجددى

وقال أيضاً :

هَذَا الْخَالُونَ مِنْ شَجْوٍ فَنَامُوا	وعيني لا يلائمها منام
وَمَا سَهَرَتْ لَأَنِّي مُسْتَهَامٌ	إذا أرق الحب المستهام
وَالَكِنَّ الْحَوَادِثَ أَرْقَتْنِي	فلى سهر إذا هجد النيام
أَصَبْتُ بِسَادَةٍ كَانُوا نَجُومًا	بهم نُسَقِي إِذَا انْقَطَعَ الْغَامُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا خَوْفٌ وَاشٍ	وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا كما للناس الحجر استلام
على المعروف والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام
وقال دعبل الخزاعي كما في رواية ابن خلكان أو المنذر بن المغيرة كما
في رواية البيهقي :

ولما رأيت السيف قد قدَّ جعفرًا ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فرب عظيمة كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر شماتته : أبشر لستأتيهم العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل برمك فما زال حتى أثمر الغصن واستعلي
وقال صالح بن طريف :

يا بني برمك واهأ لکم ولأيامکم المقتبلة
كانت الدنيا عروساً بکم فهي الآن تכול أرملة (١)

ويقول Richard Coke (٢) عن أسيرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلي :
« وبلغت الإدارة والنظام ذروة النجاح في عهد الخلفاء العباسيين الأول
بفضل الخدمات التي قدمتها أسيرة البرامكة العظيمة ؛ تلك الأسيرة التي كان
أفرادها موهوبين عباقرة ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يماثل
سلطان الخليفة »

(١) الجهمشيارى ٢٣٦ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهقي : الحاسن والسوى ص ١٢٢

(٢) Baghdad, the City of Peace p.p. 68-73 abridged.

« وفي نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقى بأفراد هذه الأسرة كلهم في أعماق السجون ، وصادر أمواهم الواسعة ، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التي نزلت بالبرامكة إحساساً عميقاً من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين .

« وقد وصل جعفر إلى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضاً لأنه كان كريماً إلى درجة الإسراف ، والأدب العربي يحوى أقاصيص لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذي كثيراً ما كان إلى الإفراط أقرب ، وهناك أيضاً حكايات تفوق الحصر عن ألفته لهارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته في تصريف الأمور .

« ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغاً في حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد »

الفضل بن الربيع بين الأمين والمأمون :

تعتبر المؤامرة التي دبرها الفضل بن الربيع هذه المرة أفضح مؤامرات هذا العهد كله وأقساها ، فعمدنا بالمؤامرة تنتهي بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل في هذه المرة دفع آلاف الناس إلى الموت ، وزج بهم في حرب طويلة مدمرة ليصل من هذا إلى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هذه المرة ، بل كُتِبَ لمسعاه الفشل ، وأصبح الأمين وقوداً لهذه النار التي أشعلها وزيره ، وأجج أوارها ناصحوه ومستشاروه . ويرجع تاريخ هذه المؤامرة إلى حياة الرشيد ؛ فقد سبق أن ذكرنا

أنه لما ثار رافع بن الليث بخراسان ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرقّة ومعه جيش كبير ليواجه بنفسه ذلك الشاثر ، ولكن الرشيد مرض في الطريق فخط رحاله في طوس ، ثم أرسل ابنه المأمون مع بعض الجند إلى خراسان وبقي هو ومعه وزيره الفضل بن الربيع وأمواله ومتاعه وبقية جيشه على أمل أن تزول عنه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيره وقواده وكبار رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع ما في عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع^(١) ، وأوصى كذلك أن يسير باقي الجيش من طوس إلى خراسان ليساعد المأمون فيما هو فيه من نضال وكفاح ، وأخذ بذلك اليهود على الفضل وإسماعيل بن صبيح وغيرهما من كبار رجاله الذين كانوا معه .^(٢)

هذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبر أمراً مخالفاً ؛ ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له في كل يوم ألف دينار وأرسل معه كتباً ظاهرة فيها السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتسلّم هذه الكتب إذا كان الخليفة حياً ، وكتبها باطنة إلى الفضل وإسماعيل بن صبيح تسلم بعد وفاة الخليفة وفيها أمره إلى القوم بالقفول إلى بغداد ، والاحتياط على ما في العسكر بحيث لا يتسرب منه شيء .

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح .

(٢) انظر الجهمشيارى ص ٢٧٣ وابن الأثير ٦ : ٧٣ .

إلى خراسان ، ووصلت أخبار هذه الكتب السرية إلى الرشيد فطلبها من بكر فأناكر وجود شيء منها معه ، فأمر الرشيد بضربه وطلب إلى الفضل تقريره فإن أقر وإلا ضرب عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل سيستجيب للغدر وأنه لن يكثر بأوامر الرشيد إذا مات الرشيد ، ومن ثم أرسل بكر إلى الفضل من يقول له أن يسوف في تنفيذ أوامر الرشيد معه لأنه يحمل من الأمين سرأ خطيرا فيه للفضل نفع وخير ؛ واستجاب الفضل كعادته إلى رغبة الأمين الذي قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ وماتل في تعذيب بكر وتقريره . (١)

هذا هو الدور الأول الذي لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا إلى استجابة الفضل ، وأما الفضل فقد أوفى بما أراد الأمين وزاد ، فإنه تظاهر بالقسوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما إن صعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجى على سريرته - كما فعل أبوه من قبل مع المنصور - وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التي أقسم على الوفاء بها أمامه ، وسارع إلى بكر بن المعتز وهو في سجنه فقال للسجان : خلوا عن أبي خراسان ؛ فقال بكر : ليس هذا وقتا تكتنئني فيه ؛ فدعا الفضل بخالع خلعها على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك في أمير المؤمنين ، ثم أخذه معه إلى حيث وضع جثمان الرشيد فأطلع بكرا عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد لبكر أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التي معك ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٣ والجهشيارى ٢٧٣ - ٢٧٤

فأحضر بكر صندوقاً للمطبخ قد نُقِبت قوائمُه وجعلت الكتب فيها ، وجعل
الجلد فوقها ، فَشَقَّ الجلد وكسرت القوائم ، وسلمَ بكر الكتب إلى أصحابها .
وكان بين الكتب كتابٌ إلى الفضل يطلب إليه العودة بالمال والجند
والعتاد ، وكتابٌ إلى صالح بن الرشيد يأمره ألا ينفذ رأياً أو يبرم أمراً
إلا برأى الفضل ، وأقر الأمين الخدم على ما في أيديهم من الأموال
والخزائن والسلاح ، وأمر ألا يصرف عطاء أو رزق للمسكر بدون رأى
الفضل ، وأقر كل من كان إليه عمل على عمله كصاحب الشرطة
والحرس والحجاجة ؛ فلما قرءوا الكتب أخذوا يتشاورون في تنفيذ وصية
الرشيد فيلحقون بالمأمون ، أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون إلى بغداد ،
ولسكن الفضل وهو كبير الركب ومدير أمره صاح فيهم : لا أدع ملكاً
حاضراً لآخر لا أدري ما يكون من أمره ، واستغل رغبة الجند في العودة
إلى أهلهم ، فامرهم بالعودة إلى بغداد ، غير مكترث بما عاهد الله عليه ،
ولا موفٍ بما وعد أن يقوم به ^(١) .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضل ، وأن يغفر له هذه
الزلة ، كما عفا عنه فيما بعد مع تراكم الذنوب عليه ، وكثرة الجرائم التي
ارتكبها ، ولسكن الفضل — كما يقول ابن خلكان ^(٢) — خاف من المأمون
إن انتهت الخلافة إليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ،
ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

والفضل هنا أناى بعيد العمق في الأنانية ؛ لقد أراد أن يضمن لنفسه

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٤١٢

النجاة ، ولو أدى ذلك إلى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتبتييم
الأطفال ، فقسم العالم الإسلامي معسكرين وانطلقت السيوف والحراب
بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند في الميدان ،
وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يدُ الدمار
حصارة بغداد ، وتعرض سكانها إلى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدى الفضل
نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهي تعجيله بإثارة
هذه الفتنة ؛ فقد بدأ يشمل أوارها عقب وصوله بغداد عائداً عن طوس
ولا يكاد الإنسان يجد سبباً مقبولاً لذلك التبكير إلا شغف الفضل بالشغب
والمؤامرات وسفك الدماء ؛ أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل
خاف أن تفضي الخلافة للمأمون وهو حي فينكل به ، فلا أميل إلى التسليم به
لأن الأمين كان في مقتبل العمر وشرح الشباب ، وكانت صحته وفتوته
مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسداً بدون سلاح فصرعه^(١) ،
صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الطواهر لم تكن توحى بضرورة هذا
التعجيل ، وقد كان المنصور يعزم على نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى
إلى المهدي ، ولكنه لم يُقدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاماً من ولايته
حينما استقرت له الأمور ؛ فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت
وسعى في إصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب إلى رغبة
المأمون في التقرب والتحب ، لكان من المحتمل أن تتغير الأحوال ، وأن

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١١٦

تصفو العلاقات ، ولسكنه الفضل الذى ورث أباه فى الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق المعوج ، وزج العالم الإسلامى فى هذا الآتون ؛ فها هو ذا التاريخ لا ينسى ، وإنما يحدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

ولم يكن الأمين فى أول الأمر يفكر فى عزل المأمون ولا يميل إليه ولكن الفضل هو الذى فتح هذا الباب ، ولم يزل يصغر عنده أمر المأمون ، ويزين له خلعه ، وقال له : ما تنتظر نعبدا لله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قباهما ، وإنما أدخلها فيها بعدك ؛ وأيد على بن عيسى بن ماهان الفضل فيما ذهب إليه ، فوافقهما الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يوما للفضل : يا فضل أحياة مع المأمون ؛ لا بد من خلعه ؛ فاغتبط الفضل بهذا وأخذ يغريه ويقول له : فتى ذلك ؛ إذا انتظرت له حتى يغلب على خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفة محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبه شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ؛ وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السادة والقادة ، ولكن كففتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه . (٢)

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يحل العهد الذى قطعه على نفسه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ؛ فهو يواتر كتبه له ، ويحشد بها عبارات الإجلال

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٥

(٢) المرجع السابق

والتعظيم ، ثم يواصل إرسال الهدايا العظيمة إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . (١)

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئاً ، بل اندفع الفضل ابن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى واتخذ الخلع المأمون خطرات متتاليةً مثابرةً أغرى بها الأمين فاستجاب الأمين لأغرائه :

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد إلى موسى بن الأمين على أن يكون تالياً للمأمون والقاسم المؤتمن ، وكتب إلى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما . (٢)

ثم استدعى المؤتمن من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيداً لعزله هو أيضاً . (٣)

ثم كتب الأمين إلى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل إليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلاً لوضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعاً لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل إليه الطرف والهدايا ، ولكنه أحس بخطئه فنكتم الأمر عن المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه . (٤)

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٤ والحضري ٢ : ٢١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ثم أشار إسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرفه حاجته إليه ، ويبلغه شوقه إلى قربه ، وإيشاره الاستعانة برأيه ومشورته ، ويسأله القدوم عليه ، فقبل الأمين هذا الرأي ، وأمر إسماعيل أن يكتب ففعل ، ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة ، فلم يلتفت إلى الأمين ولم يجبه . (١)

ثم كتب إلى المأمون يسأله التجاني له عن بعض كور خراسان ، وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقصد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ، وأن يرسل إليه كل عام ما يتبقى عنده من المال بعد نفقاته ، فاستشار المأمون أصحابه ، فأشار بعضهم بالموافقة مصلين ذلك بأنهم يطلبون السلامة ويتحاشون الخلاف لسوء ما يؤدي من عواقب ، ولسكن الفضل بن سهل وأخاه الحسن عارضا هذا الرأي ، وقال الفضل : إنا إن أجبنا هذه المرة فسيستجاوز هذا الطلب إلى غيره ، وسنكون بذلك قد تعجلنا الوهن بما أعطيناه ، وقال الحسن : لا تنهوا لقلة فيكم ؛ فليس النصر بالقلة والكثرة ، وجرح الموت أيسر من جرح الضيم ؛ وقال المأمون : إن إيثار الدعة يؤدي إلى فساد العاقبة في الدنيا والآخرة ؛ وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢) .

ثم وجه الأمين إلى المأمون أربعة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ، وعيسى بن جعفر بن المنصور ، وصالح صاحب المصلي ، ومحمد ابن عيسى بن نهيك ، ومعهم كتاب يطلب الأمين فيه إلى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد ، فلما قرأ المأمون الكتاب

(١) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٦

(١) الجهشيارى ٢٨٩-٢٩٠ وابن الأثير ٦ : ٧٦

رفض أن يستجيب لهذه الرغبة الجارحة ، وأخبر بذلك الرسل ، فقال العباس
ابن موسى : لقد جرت العادة بذلك أيها الأمير ، وهذا جدى عيسى بن
موسى قد شلخ من قبل ، فصاح الفضل بن سهل : اسكت ، إن جدك كان
أسيراً في أيديهم ، وهذا بين أخواله وشيعته ، ثم قاموا ، فخلا ذو الرياستين
بالعباس بن موسى ، ووعدته إمرة الموسم وهو اضع من مصر ، فأجاب سرّاً
إلى بيعة المأمون ، ووعد أن يكتب للمأمون بأخبار بغداد عند عودته ، ثم
عاد ومعه أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقديم موسى عليه ؛
وأصبح العباس عينا للمأمون في بلاط الأمين (١) .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، وأنه لا بد أن
يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل في هذا النزاع ، فأقفل الحدود بينه
وبين العراق ، وأمر ألا يسمح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا بإذن خاص
وبعد تفطيش دقيق ، وبهذا صارت أمور المأمون مستورة عن الأمين ،
ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون . بترتيب العباس بن موسى ، ثم
شرع المأمون بعد ذلك يعد نفسه ، ويهيئ جنده ، وكتب إلى عماله بذلك ،
وتحجب هو إلى الناس ، واتصل بالعلماء والفقهاء ، وبينما كان المأمون يفعل ذلك ،
كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب . وسارت الركبان في
الآفاق بغدر محمد الأمين ، وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس منه
وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه (٢) .

واتهم الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون ، في وجه الأمين وعدم

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦

(٢) الجهمشاري ص ٢٩٢

استجابته لرغبة ما من رغباته ، فألح على الأمين في خلع المأمون ، وتولية ابنه موسى بعده ، فاستجاب الأمين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك في صفر سنة ١٩٥ هـ ، وكتب الفضل بن الربيع عن الأمين بذلك ، وبالنهي عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجة وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد عليهما في الكعبة بالبيعة ، ففعل ذلك وسرقهما ، وصار بهما إليه ، فدفعهما الفضل إلى محمد بن قهما (١) .

وبلغت هذه الأخبار المأمون والفضل بن سهل ، فوجهاهمهما إلى الجند وتزويدهم أحسن زاد ومدهم بأقوى عتاد ، وكون ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال هما طاهر بن الحسين وهشمة ابن أعين ، وسارا الأول يقصد بغداد من الجنوب والثاني يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده ، وليضمن لقواته النصر .

وحدثت أول معركة بين جيوش الأمين بقيادة علي بن عيسى بن ماهان الذي استهان بجيوش طاهر (٢) وبين طاهر بن الحسين . ودارت الدائرة على جيش الأمين ، وقتل علي بن الحسين ، فكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعدائك ، وجعل من يشنوك فداك ، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في إصبعي وعسكره تحت يدي ، والحمد لله رب العالمين (٣) . فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصح

(١) الجهشيارى ص ٣٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٧

(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٣ .

عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة، وأمر أن يخطب له ويخاطب
بأمر المؤمنين (١) .

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة ، وأخذت تتقدم من
فوز إلى فوز ، ومن نصر إلى نصر . ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد
وفاة علي بن عيسى وعم الشؤم بغداد ، وكون الأمين جيشاً آخر بقيادة
عبد الرحمن بن جبلة لمواجهة طاهر ، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه ، ثم دعا
الفضل بن الربيع أسد بن يزيد بن مزيد ليقيود الجند فاستد اسد فماله
من الأموال والعناد والرجال والسلاح ، فصار به إلى محمد ، وعرفه ذلك ،
فغضب وأمر بحبسه (٢) .

وحدث أن وليَّ الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن
يمده بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين في حربه ضد أخيه ، وذهب
عبد الملك إلى الرقّة ، فكتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا ،
ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين ؛ فإن حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء
الجنود ، فاشتبكوا في قتال عنيف كان من نتائجه نشأت هذا الجيش وعدم
إتفافع الأمين به (٣) .

وفار الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان على الأمين في بغداد وخلعه
في رجب سنة ١٩٦ هـ وأخذ البيعة للمأمون ، وأيده في ذلك العباس بن موسى
بن عيسى ، ولكن هذا لم يتم ، إذ عاد بعض الجند فانشقوا على الحسين ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٨٥ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٩ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٦ : ٨٥ - ٨٦

وأطلقوا سراح الأمين ، وأجاسوه على كرسي الخلافة مرة أخرى (١) .
وكان داود بن عيسى بن موسى عاملاً للأمين على مكة والمدينة ، فلما
رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة السكتابين من الكعبة ، جمع
الناس بمكة وقال لهم : قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد والميثاق
عند بيت الله الحرام لابنيه لتسكون مع المظلوم منهما على ظالمه ، ومع المغدور
به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فنقض بيعة أخويه ،
وبايع لابنه الطفل الرضيع ، وأخذ السكتابين من الكعبة فزقها ظالماً ، ولهذا
فقد رأيتم نخله والبيعة للمأمون ؛ فأجاب به الناس إلى ذلك وكتب لابنه سليمان
بالمدينة أن يملأ هذا ففعل ، وكان ذلك في رجب ١٩٦ هـ (٢) .

ورأى الفضل بن الربيع تديره يفشل ، ورأى دولة الأمين تضعف
وتضمحل ، فظهر بمظهر غير كريم ؛ ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم
معه سرارة العيش في هذه الأيام السكدة ، ويشرب معه كأس المتاعب حتى
الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشجاعة مسؤولية ما قدّمته يداه ، وإنما استتر
في رجب سنة ١٩٦ هـ تاركاً الأمين وحده في هذه الليالي السود (٣) .

ولم يستطع الأمين اللاهي أن يتدارك أمره فأخذ شأنه يضعف ،
وفقد المال والرجال ، وحاصرت جيوش المأمون بغداد ، ومرت بعاصمة
المسلمين أحلك الليالي ، وكثر فيها الخراب والهدم والحرائق ، حتى درست
منازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم إلى جيوش المأمون كثيرون من

(١) المرجع السابق ٦ : ٨٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨٨ - ٨٩

(٣) الجهشيارى ٣٠١ - ٣٠٢

أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفساق يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق
لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ، وعمت الآفات ، وقد وصف بعض
شعراء بغداد هذه الفترة القاسية وصفاً يغنى عن المزيد من الشرح فقال :

بكيت دماً على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين	فأفنت أهلها بالمنجنيق
وقوم أحرقوا بالنار قسراً	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي : واصباحا	وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات دل	مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب	ووالدها يفر إلى الحريق
ومغترب بعيد الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق (١)

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمن ، وانضم
عدد من سادتهم وقادتهم إلى جيوش المأمون المحاصرة ، وقدموا لها العون
والمساعدة . أما الأمن فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبقى معه من
الجواري بمدينة المنصور (٢) ، وتقدم طاهر فحصره وأخذ عليه الأبواب
وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمن هزيمة
ابن أعين ، وطلب منه الأمان على أن يستسلم إليه ويسلم البردة والقضيب
والخاتم ، فقبل هزيمة ، ولكن طاهراً كان للأمن بالمرصاد ، وأراد أن

(١) ابن الأثير ٦ : ٩١ - ٩٢

(٢) هي بغداد التي بناها المنصور وكانت في عهد الأمن تمثل جزءاً صغيراً من العاصمة التي
انضمت اتساعاً كبيراً ،

يحتل بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثة ، ونزل الأمين إلى دجلة حيث كان هرثة في انتظاره في حراقة ، فأحسن هرثة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها ، وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه إلى طاهر ، فأرسل بها إلى المأمون . (١)

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التي تسبب الفضل بن الربيع في إشعالها ، أما الفضل فقد ظل في مخبئه ، بعيداً عن هذه الكوارث التي أنزلها بالآخرين ، وبمناى عن الملمات التي حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شباب المسلمين . ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبرى والثبوت أمامها ، وتدير أمورها ، وإنما كان رجل دعة ونعيم .

والعجيب أنه ظل مختفياً حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشباً بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لتولية المأمون علياً الرضا عهده ، ولأنه بلغهم أن الفضل بن سهل مسيطر على المأمون وأن المأمون سجين عنده ؛ ولما انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلصوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، لم يخرج الفضل بن الربيع من الظهور ، والاتصال بإبراهيم بن المهدي .

(١) ابن الأثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار .

فرسمه إبراهيم بحجابه ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون في طريقه إليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل . . . فاختل أمر إبراهيم ابن المهدي ، وفي هذه الحال عاد الفضل بن الربيع إلى الاستتار مخليا إبراهيم ابن المهدي ليواجه الأحداث وحده كما خلى من قبل محمدا الأمين (١) . وظل الفضل مختفيا إلى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل إلى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحة في دار المأمون (٢) وظل كذلك إلى أن مات سنة ٣٠٨ هـ خلفاً هذه الذكريات المرة التي تتجدد من حين إلى حين ، والتي تدل على أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة .

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٢ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٥٢ .

obeykandi.com

الفصل الرابع

دراسة نفسية